الذات المفقودة (الشنفرى أنموذجا)

أ.م.د.رجاء لازم رمضان
الجامعة المستنصرية ـ كلية التربية الأساسية
rajaalazm@gmail.com

مستخلص البحث:
لقد كان للشنفرى منزلة كبيرة في قبيلته، فهو لسانها المعبّر عنها، والمدافع عن وجودها تجاه القبائل الأخرى، من هنا كان وجوده مرتبطا بقبيلته بوصفه جزءا من بنائها الإجتماعي الذي تقع على عاتقه مسؤولية إعلاء شأن تلك القبيلة أمام الآخرين، والدفاع عنها، قبالة الدفاع عنه، إذا ما الم به خطبٌ ما.إنّ هذه العلاقة الإجتماعية قد فرضت على الشاعر علاقة فنية، قد تشوبها أحياناً اضطرابات ينتج عنها خروج الشاعر من هذه البوتقة التي وجد نفسه منصهرا فيها، باحثا عن ذاته المنفردة بعيداً عن هيمنة القبيلة وسطوتها ويُعد الشنفرى أحد الشعراء(الصعاليك) الذين سعوا جاهدين للخروج على النظام الإجتماعي السائد الظالم لهم كما يعتقدون والبحث عن وجودهم، ولاسيما في (لاميته) التي تُعد أنموذجاً يمكن الرجوع اليه.

الكلمات المفتاحية :الذات – المفقودة – الشنفرى.

الشنفرى

اولاً: حياته

هو عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان، شاعر جاهلي، يماني، من فحول الطبقة الثانية، كان من فتاك العرب وعدّائيهم، وهو احد الخلعاء الذين تبرأت منهم قريباً من عشرين خطوة، وفي الأمثال: " اعدى من الشنفري" وهو صاحب "لامية العرب"، التي مطلعها:

" اقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإنّي إلى قوم سواكم لأميل" .[1]

ولد الشنفرى في منطقة السراة، تلك المنطقة الجبلية الممتدة من تخوم الطائف حتى نجران على حدود اليمن، وكان الأزد ينزلون منطقة خصبة، حيث كانت منازلهم أودية مستقبلةً مطلع الشمس بتثليث وتربة وبيشة، المنطقة وهي كانت تنزل فيها خَنْعم أيضًا، فقد كانت التي تنزل أيضا أوساط هذه الأودية.[2] قُتِلَ والد الشنفرى وهو صغير، ولمّا رأت أُمّه أنه لم يطلب بدمه أحدٌ، خافت على ولدها، فهربت به إلى أخواله بني فَهم بن عمرو بن قيس عيلان، وهناك نزل بجوار ثابت بن جابر الفهمي المعروف بـ(تأبَّطَ شَراً) أشهر صعاليك العرب، فبقي إلى جواره إلى أن كَبُرَ، ورأى تأبط شرا نجابته فجعل يكرمه، ويقرّب منه مكانته، وأخذ يدربه على الغزو ويمرّنه، إلى أن حَذِق الرمي والعَدوَ .[3]

أما نشأته فقد اختلف الرواة فيها، إذ قال بعضهم إنَّه نشأ في قومه الأزد، ثم أغاظوه فهجرهم، وقال آخرون إن بني سلامان أسروه صغيراً، فنشأ فيهم يطلب النجاة، حتى هرب، ثمّ انتقم منهم. وقالت فئة ثالثة: إنه ولد في بني فنشأ بينهم، وهو لا يعلم أنه من غيرهم، حتى قال يوماً لابنة مولاه: اغسلي رأسي يا أخيَّة، فغاظها أن يدعوها بأخته، فلطمته. فسأل عن سبب ذلك، فأخبر بالحقيقة، فأضمر الشَّرِّ لبني سلامان، وحلف أن يقتل منهم مئة رجل، وفعل .[4] وقول الاصفهاني في كتابه الأغاني " أن الشنفري كان من الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث، أسرته بنو شبابة بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج بن عوف بن ميدعان بن مالك بن الأزد رجلاً من فهم، أحد بني شبابة فَفَدَته بنو شبابة بالشَّنْفَرِي قال: فكان الشنفري في بني سلامان بن مفرج لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنتُ الرجل الذي كان في حجره، وكان السَّلامي اتخذه ولدا وأحسن إليه وأعطاه، فقال لها الشنفري: اغسلي رأسي يا أُخيَّه وهو لا يشك في أنها أخته، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته، فذهب مغاضباً حتى أتى الذي اشتراه من فهم، فقال له الشنفري: اصدقني ممن أنا ؟ قال: أنت من الأواس بن الحجر، فقال: أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتموني، ثم إنه

ما زال يقتلهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً، وقال الشنفري للجارية السلامية التي لطمته وقالت: لست بأخي:

ألا ليت شِعري والتّلهف ضَلّةٌ بما ضَربت كفُّ الفتاة هجينها؟
ولو علمت قعسوس أنساب والدي ووالدها ظلّت تقاصرُ دونها
انا ابن خيار الحلُجر بيتاً ومنْصبا وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها [5]

ويعد الشنفرى من من اشهر الصعاليك في العصر الجاهلي ومن ألمع شعرائهم، ومع ذلك اختلف الرواة كالعادة في اسمه فقيل إنه: ثابت بن اوس الأزدي، وقيل إن الشنفرى اسمه لا لقبه، والشنفرى يعني الغليظ الشفاه، ويدل ذلك على أن دماء حبشية تجري في عروقه من ناحية، أمه، فهي أ أمة حبشية وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُدَّ في أغربة العرب، وإذا اختلف الرواة في اسمه فقد أجمعوا على أنه من الأزد، القبيلة القحطانية المعروفة، وكان من فتاك العرب وعدائيهم وهو الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم، وصديق تأبط شراً، لا نعرف الكثير عن حياته، لكن من المجمع عليه أنه كان يحقد على بني سلامان الأزديين حقداً شديداً .[6] ومهما يكون اختلاف الروايات، فإنه من الثابت الشنفرى أنشأ مع بعض رفاقه العدائين، ومنهم تأبط شراً، والسليك بن السلكة، وعمرو بن البراق، وأسيد بن جابر عصبةً عُرفت في الأدب العربي باسم الشعراء الصعاليك، وكانت طرق معيشة هؤلاء تنحصر بالسلب والنهب، والغارات ليلاً، فيروعون النساء، والأطفال، ويبلبلون عقول الرجال، حتى إذا خافوا أن تدركهم الخيل، اتجهوا نحو الجبال العاصمة، والاودية الوعرة، والأدغال الموحشة فتغلغلوا فيها .[7] قال: ثم قعد له بعد ذلك أسيد بن جابر السلاماني وخازم الفهمي بالناصف من أبيدة ومع أسيد ابن أخيه، فمر عليهم الشنفري، فأبصر السواد بالليل، فرماه، وكان لا يرى سواداً إلا رماه كائناً ما كان، فشك ذراع ابن أخي أسيد إلى عضده، فلم يتكلم، فقال الشنفري: إن كنتَ شيئاً فقد أصبتك وإن لم تكن شيئاً فقد أمنتك، وكان خازم باطحاً: يعني منبطحاً بالطريق يرصده، فنادى أسيد يا خازم أصلت، يعني اسلل سيفك. فقال الشنفري: لكل أصلت، فأصلت الشنفري فقطع إصبعين من أصابع خازم الخنصر والبنصر، وضبطه خازم حتى لحقه أسيد و ابن أخيه نجدة، فأخذ أسيد سلاح الشنفري وقد صرع الشنفري حازماً وابن أخي أسيد، فضبطاء وهما تحته، وأخذ أسيد برجل ابن أخيه، فقال أسيد: رجل مَن هَذه ؟ فقال الشنفري: رجلي، فقال ابن أخي أسيد: بل هي رجلي يا عم: فأسروا الشنفري، وأدوه إلى أهلهم، وقالوا له: أنشدنا/ فقال: إنما النشيد على المسرَّة، فذهبت مثلاً، ثم ضربوا يده فتعرضت، أي اضطربت فقال الشنفري في ذلك:[8]

لا تَبعدي إمَا ذهبتِ شامَه فرُبّ وادٍ نفَرت حمامَه

ورُبَّ قرنٍ فَصَلت عِظامَه

ثم قال له السُّلامي" أأطْرِفك؟ ثم رماه في عينه فقال الشنفري له: كأن كنَّا نفعل أي كذلك كُنّا نفعل، وكان الشنفري إذا رمى رجلاً منهم قال له: أأطرِفك؟ ثم يرمي عينه؟ ثم قالوا له حين أرادو قتله: أين نقبُرك؟ [9]، فقال:

لا تقبُروني إن قَبري مُحرَّم عليكم ولكن أبشري أمَّ عامر
إذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري وغودِر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسُرُّني سميرَ الليالي مبسَلاً بالجرائرِ [10]

وقتال تأبّط شرّاً يرثي الشَّنفري:

على الشَّنْفري سارى الغمام ورائحٌ غزيرُ الكُلى، وصيِّب الماءِ باكرُ
عليك جزاءٌ مثل يومِكَ بالجَبا وقد أُرعفت منك السّيوفُ البواتر
وإن تكُ مأسوراً وظلت مُخيِّماً وأبليت حتى ما يكيدك واترُ
وحتى رماك الشيبُ في الرأس عانساً وخيرك مبسوطٌ وزادك حاضر

واجمل موتِ المرء إذ كان ميتاً ولا بد يوماً موتُـه وهو صاير
فلا يَبعدنّ الشَّنفري وسِلاحه الـ حديدُ وشدٌّ خطوه متواتر
إذا راع روعُ الموت راع وإن حمّى حمَى معه حُرٌّ كريم مُصابِر [11]

ثانيـاً: شعره

يختلف النقاد فى أن الشنفرى من الصفوة الممتازة فى شعراء العرب. وأنه مهما كان الاختلاف في ترتيب الشعراء ووضعهم في طبقات ودرجات، فهو دائما في المقدمة بالنسبة لشعراء العربية قاطبة، سواء كان فى الطبقة الأولى أو في طبقة تليها، ولكن الذي يعنينا فوق ذلك أن الصعاليك امتازوا بمنهج خاص في شعرهم، وهذا المنهج لفت نظر المجتمع إلى شعرهم وجعله يحظى بأهمية خاصة، وقد كان الشنفرى أبرز الصعاليك في شاعريته وكان أبرزهم في هذا المنهج الذي لفت أنظار المجتمع وأثار إعجابه .[12] إن هذه الشاعرية التي وهبها الشنفرى كانت مر أبرز عوامل شهرته ودعائم شخصيته التى أخذ ذكرها يزيد فى أرجاء الجزيرة العربية وما زال رنينها تتجاوب به الروايات وتحمل صداه الكتب فضلاً، عن تداوله بين ألسنة العصور وآذانها .[13]

وترك الشنفرى شعراً لكن معظمه ضاع، وبقي منه القليل، وهذا القليل يدل على شاعريته الفذة فإذا كان عروة بن الورد قد تزعم جماعات الصعاليك، فإن الشنفرى هو زعيمهم شعرياً بدون مزاحم ذلك أن الشنفرى لم يطلعنا وحسب على أسرار حياة الصعاليك وأهدافهم، وأساليب تصعلكهم، كما فعل غيره من الشعراء زملائه، بل لقد ارتفع في تصوير هذه الحياة إلى مستوى الخلق الفني الموهوب، حتى أضحت لاميته واحدة من أهم وثائق الفن والحياة المعبرة عن نموذج المعيشة الجاهلية، وقد نالت هذه اللامية شهرة واسعة واختلف في نسبتها إليه، فقيل إن خلف الأحمر، وقيل إنه حماد الراوية، لكن من الباحثين من رفض هذه الادعاءات انطلاقاً من أن هذه القصيدة أصدق قطعة تشعرية في أغاني الصحراء، وأن الانتحال إذا تناول غيرها فهو عنها بعيد لم يمسسها ولا حام حولها .[14]

وتميز شعره بكثرة المقطوعات والأبيات المفردة مما يدل على أن بعض شعره قد ضاع إلى جانب غزارة النظم في (لامية العرب) وتائيته المفضلية. فبلغت لاميته سبعين بيتًا وتائيته سبعة وثلاثين بيتاً وهما من أطول قصائد الديوان ولم يسر في قصائده على النهج الذي احتذاه شعراء العربية في عصر ما قبل الإسلام من الوقوف على الأطلال ووصف مشاهد التحمل والارتحال إلا في تائيته، قال:

ألا أمُّ عمـرو أجمعت فاستقلَّت وما ودَّعت جيرانهـا إذ تولَّـتِ

فهو يبدأها بشكل من أشكال المقدمة الطللية، ويُعنَى فيها بوصف صاحبته وصفاً امتزج فيه الجانبان الحسي والعذري، أما قصائده الأخرى فسار فيها على نهج الشعراء الصعاليك، الذين عُنوا بوصف الغارات والفخر والإباء وقوة التحمل، وخلال ذلك انصرفوا إلى وصف الحيوان والسهام والقسي أما أهم الأغراض التي تضمنها شعره فالفخر والوصف وصف الغارات والحيوان والصعاب التي تعترضه وكل ما يلاقيه جراء صراعه مع بني سلامان .[15]

وإن لاميّة العرب هي اشهر ما نسب الى الشنفري، ومطلعها:

أقيمـوا، بني أمّي، صدورَ مطيِّكم فإنّي الى قومٍ سواكُم لأميَلُ

ولا نعرف من أطلق عليها هذه التسمية، ومتى أطلقها، ولعلّ اختصاصها بهذا الاسم دون غيرها من القصائد اللامية التي نظمها الشعراء الجاهليون والإسلاميون، كزهير بن أبي سلمى، وعنترة وامرىء القيس، وكعب بن زهير، وغيرهم، يعود إلى ما بلغته من شهرة أدبية ولغوية لم تصل إليها سائر اللاميات، واختلف في نسبة هذه القصيدة، فذهب معظم الرواة إلى أنها للشنفرى، وقال ان دريد إنها لخلف الأحمر.[16] والجدير بالذكر أن هذه القصيدة لامية العرب لقيت من العناية الشيء الكثير، فشرحها قديماً الخطيب التبريزي والزمخشري وابن الشجري وابن أكرم وغيرهم، وترجمها حديثاً الأستاذ يعقوب إلى الألمانية وقرنها بترجمة روكرت التي جورج ظهرت ١٨٤٦م وترجمة رويس

التي ظهرت عام ١٨٥٣م، وترجمها ريد هوس إلى الانجليزية، وعلق عليها وترجمت إلى الفرنسية وشرحت كما ترجمت إلى البولونية والإيطالية وإلى لغات أخرى حية وقديمة وعني بدراستها المستشرق تيودور نولدكه فحققها .[17] ومهما يكن من أمر نسبة هذه اللامية، فقد تبوأت في الأدب العربي منزلة تزاحم منزلة المعلقات، وهي من حيث الشهرة وعناية العلماء بها، ترتفع إلى منزلة لامية كعب بن زهير بانت سعاد، التي أنشدها في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم)، دون أن تعتمد في شهرتها مرتكزاً دينيا كقصيدة كعب بل بلغت ما بلغته بفضل ما فيها من جودة الشاعرية، وطرافة المشاهد الصحراوية المصورة، ووفرة المادة اللغوية التي أغرت العلماء بشرحها وإعرابها.[18]

ثالثاً: ديـوانه

يظهر أن شعر الشنفرى كان معروفا لدى المصنفين القدامى خلال قرون متعاقبة، إذ نجد إشارات إلى هذا الشعر في كتب اللغة والتراجم والأدب منذ القرن الأول الهجري، لأن شعر الشعراء الصعاليك، بل شعر الشنفرى كان متداولا، فقد نقل (أبو الفرج الأصفهاني) في الأغاني بعض الأشعار عند ترجمته للشنفرى على الرغم من إهماله لذكر لامية العرب، فلم يذكر منها ولا بيتا واحدا، كما أشار (المفضل الضبي) إلى شعر الشنفرى في المفضليات، وذكر (البغدادي) بعض الأشعار في خزانة الأدب، وغيرها من الكتب، فقد كانت مصادر شعر الشنفرى كثيرة ومتنوعة، فيها كتب الأدب ومجموعات الشعر، والحماسات كحماسة أبي تمام والمعاجم، وكتب الشروح وسواها .[19]

في خبر ذكره أبو أحمد العسكري قال: " أخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى قال: حدثني علي بن العباس قال: رآني البحتري ومعي دفتر فقال: ما هذا ؟ فقلت: شعر الشنفرى، قال: وإلى أين تمضي ؟ قلت: أقرأه على أبي العباس أحمد بن يحيى..." .[20] وذكر ابن جني في أكثر من موضع أنه قرأ أبياتاً متفرقة من شعر الشنفرى، ولاسيما لاميتـه على شيخه أبي علي الفارسي النحوي، ومما نقله صاحب (المزهر): أنّ الأصمعي قرأ شعر الشنفرى على الشافعي بمكة، قال: " قال الساجي: سمعت جعفر بن محمد الخوارزمي يحدّث عن أبي عثمان المازني عن الأصمعي قال: قرأت شعر الشنفرى على الشافعي بمكة" .[21] وذكره العيني فيما ذكره من دواوين الشعراء متقدمين كانت في مصادره، وفي الأخبار ما يدل على ان شعر الشنفرى كان متداولاً معروفاً لدى رواة الشعر، واللغويين وفحول الشعراء، وعلى الرغم من ذلك فلم يرد شعر الشنفرى في ضمن أولئك الشعراء الذين عمل أبو سعيد السكري أشعارهم لكنه عمل أشعار اللصوص وذكر له كتابان آخران هما (أشعار فهم) و (أشعار الأزد) إلا أنهما ضاعا .[22] وجدير بالذكر أن معظم المصادر ترجمت للشنفرى وذكرت أخباره، كما نقلت له أطرافا من شعره مصدرا للشعر والترجمة معاً، وهذا يعني أن شعر الشنفرى كان معروفاً خلال القرون الطويلة .[23] أما في العصر الحديث، فقد ذكرت عزيزة فوال بياتي أن ديوان الشنفرى، نشر تحت عنايات مختلفة، فقد قام بنشره الباحث الفرنسي (سلفستر دوساسي) في باريس سنة 1826م، كما نشره (روس) في ألمانيا سنة 1853 م، ونشره الباحث (ريد هاوس) في الأستاذ إنجلترا سنة 1881م كما نشر بمطبعة الجوائب في استنبول بتركيا سنة 1882م، وقام عبد العزيز الميمني بنشر مجموع شعر الشنفرى في مجلة الطرائف الأدبية في القاهرة سنة 1937م، وقام الأستاذ جاكوب بافاريا بكتابة بحث موسوم بـ دراسات في شعر الشنفرى، نشره في سلسلة نشرات أكاديمية العلوم رقم 1، وقد قام أخيراً الأستاذ إميل بديع يعقوب يجمع شعر الشنفرى من المصادر ثم قام بشرحه وتفسير معانيه مع الإشارة إلى كثير من العبارات، وتوضيحها، وقد نشر هذا الديوان بدار الكتاب العربي ببيروت (24).ولمعرفة الذات المفقودة للشاعر لابد من معرفة ما المقصود بالذات لغة واصطلاحا ومن ثم صور الذات المفقودة.....

اولاً: الذات لغةً واصطلاحاً

الذات لغة:-

جاء في معجم لسان العرب أن لفظة " ذات" أصلها من تأنيث "ذو"، يقول: " هي ذات مال وهما ذواتا مال، ويجوز في الشعر ذاتا مال، والتّمام أحسن" .[24]

ونجد الذات في المعجم الوسيط بمعنى: " و(الذات) النفس والشخص يُقَال فِي الأدَب نقد ذاتي يرجع إِلَى آراء الشَّخص وانفعالاته وَهُوَ خلاف الموضوعي (محدثة) وَيُقَال جَاءَ فلان بذَاتِهِ عينه وَنَفسه وَيُقَال عرفه من ذات نفسه سَرِيرَته المضمرة وَجَاء من ذَات نَفسه طيعاً " .[25]

الذات إصطلاحاً :-

يتعدد مفهوم مصطلح الذات حسب كل مجال، ففي علم النفس وعند" فرويد Freud" تحديدا يقابل مفهوم الذات مصطلح" الأنا "الذي" يواجه الناس والمجتمع، ويتدبر الأمور، ويرسم الخطط وتتحقق به الصور الذهنية والأحلام، والأنا جزء من الهو يتخارج عنه ويعيش بطاقة الهو، وإذا كان الهو لا منطقيا فالأنا منطقي ومنظم".[26] وتُعرف الذات بأنها الأنا التي تمثل " مركز الشخصية في نفس الفرد الإنسان،فهي تنمو وتفصح عن قدراتها من خلال البيئة المحيطة، أو الوسط الاجتماعي، ويبرز الشعور بالأنا من خلال تلازم الذات مع الآخر" .[27]

ومن الناحية الفلسفية فإن الذات هي " المتكلم نفسه وهو القائل باعتبار وعيه لقوله ولمقاله بالذات، فالأنا ما تقوله لغيرها، ومن هنا تبرز الأنا كعنوان أعلى، وكمركب علائقي يتمحور فيه الأنا والآخر والموضوع كمنظومة للأنا فلسفيا، وفي هذه الأبنية العلائقية يتوسط الموضوع بين الأنا والآخر (أنا – الموضوع - آخر) باعتباره أحد الأقطاب الوسطية في بنية الأنا العلائقية " .[28]

كما أن الذات يمكن أن تثبت وجودها وهويتها من خلال علاقتها بالآخر، والذي يمثل المقابل لها، والمختلف عنها إذ أن الهوية هي " عبارة عن رد فعل لشيء خارجي ومختلف عنها أي (الآخر)" فالإنسان لا يدرك ذاته وهويته إلا من خلال اتصاله بالآخر .[29]

ومن خلال التعاريف السابقة نكتشف أن الذات هي مفهوم ينطبق على ما تشتمل عليه الذات من خصائص مختلفة ؛ سواء كانت نفسية، اجتماعية وعقلية، والتي تحدد شخصية وهوية هذه الذات، وتميزها عن غيرها .[30]

ثانياً : صور الذات المفقودة

بلغ اليأس من نفس الشنفرى مبلغاً عميقاً، يأس من تصحيح مسار المجتمع، أو تغييره وتحويله إلى مجتمع حاضن لأبنائه جميعاً، دون استثناء لأحد. لم يتمكن من إيجاد صيغة من الوفاق أو التفاهم تقربهمن مجتمعه، وذلك لأن لكل منهما نهجه ورؤاه التي يتشبث بها، ولا يتخلّى عنها، مما أدى إلى ازدياد عمق الهوة بينهما، ليزداد عمق الانفصال والقطيعة، وكان الحل الوحيد في هجران المجتمع والخروج على نظمه وأعرافه، وفصم عرى التواصل بينهما، والعمل على إيجاد مجتمع آخر ينتمي إليه، وقوم آخرين يصيرون أهلاً له، فاستفتح لاميته بإعلان الهجرة والمفارقة. قال :[31]

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكمْ لأميلُ
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزلُ
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

يبحث الشنفرى عن المجتمع الأمثل، أو العالم النموذجي الذي تتوافر فيه البيئة الصحية المناسبة للحياة الآدمية، بيئة لا مكان فيها للأذى أو الخوف، أو الضيق، أو الظلم أو القهر. وفي بحثه الحثيث الجاد عن الانتماء، بعد أن قطع انتماءه من مجتمعه القديم، يرسم الشنفرى صورة للعالم البديل، عالم يضم في جنباته قوماً لا يمتون إلى القوم السابقين بصلة قرابة أو مشابهة. مجتمع جديد بكل ما فيه، ويتواءم مع دواخل نفسه، وخصوصية شخصيته المتمردة. يقول :[32]

ولي دونكم اهلونَ: سيدٌ عملّسٌ وأرقط زهلولٌ وعرفاءُ جيألُ
همُ الأهلُ لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم، ولا الجاني بما جرَّ يُخذلُ

فقدان للأهل وخذلان وأسرار مُذاعة، وجنايات تلاحقه. هذه عقابيل وآفات الواقع القديم التي يحاول الشنفرى تخطيها، ويعمل على تجاوزها، بما يناقضها شكلاً ومضموناً. بعالمه الجديد حيث الأهل لا يتهربون، أو يتنكرون لواجباتهم تجاه الأبناء، هم الحضن الدافئ الذي يوفر الأمان للمأزوم، فيفرج عنه الكرب، ويخفف عنه الضيق. الشنفرى مؤذى، وخائف قلق، ومخذول. فهل يحقق هؤلاء الأهل الجدد، ما يأمله منهم؟ لكن، أولاً لابد من نظرة قريبة لتفحص الهويات الذاتية لكل فرد منهم.[33]

الشنفرى يعمل على بناء، أو تخيّل واقع تظهر فيه الأنا الشنفرية بحالة من الصحة، والارتواء، والتفوق. يحاول أن يستر أناه الجافة اليابسة التي أضمرتها، وأذبلتها (نحن) الجماعة التي نبذته وقهرت إنسانيته بمحاولاتها الدائمة تذويب أناه الفردية وإلغاءها. يريد أن يقول لتلك الجماعة، إنه قادر على الحياة خارج وصايتهم، ونطاق حمايتهم، ويؤكّد على انتمائه الجديد بمؤكدين: لي دونكم أهلون، هم الأهل. ليقطع عليهم طريق الشك، أو ربما أراد أن يقنع ذاته أولاً، قبل إقناع الآخرين، لأن هذا العالم قد يكون مجرّد وهم، او حلم يحاول به مواساة خيباته، وترميم بعض من آثار الهدم النفسي الذي أصيب به البشر.[34] والآن، بعد أن أسّس الشّنفري مجتمعه الخاص المثالي، ينتقل الى خطوة أخرى، هي توفير الحماية والحصانة لعالمه الناشئ، يقول:[35]

ثلاثة أصحاب فؤادٌ مشيَّعٌ وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عيطلُ
هتوفٌ من الملسِ المتون يزينها رصائعُ قد نيطتْ اليها ومحمِل

الشنفرى يعيش حالة من ديمومة الخوف من عدوّ خارجي يتوقع هجومه وانقضاضه في أي وقت، دون سابق إنذار العدو المتربص هو الـ (نحن) التي فرّ من تسلطها، وسطوتها، وهرب من استبدادها، لذلك فإنّه يوفر لأسلحته التي تحولت إلى أصحاب له ورفاق كل مزايا الصلابة والمتانة، في محاولة منه لتصليب هشاشته الداخلية، بملء الفراغات الخاوية في تكوينه النفسي المتخلخل.[36]

في جو المتانة والقوة الذي ينسجه الشاعر حول نفسه، تتفلت منه، ربما على غير وعي منه، لحظة من الضعف الإنساني، نتحسّسها في صورة القوس التي ينطلق عنها السهم، وقد تحولت إلى أم ثكلى فُجعت بابنها فراحت تنوح وتنتحب بصوت حزين شجي يفطر القلوب، في قوله:[37]

إذا زل عنها السهم حنت كأنّها مُرزَاةٌ عَجلى ترنُّ وَتُعُولُ

غصة في القلب، وحرقة في النفس، سببها حاجة حقيقية إلى الحنان، والتعاطف من الآخر، المجتمع الأم الذي لم يعطه إلا الحزن والقسوة. في هذه اللمحة الخاطفة، تظهر حقيقة الشنفرى الداخلية الكسيرة، والمحزونة الهشة وليست تلك الصورة الوهمية المنتفخة بمظاهر القوة الزائفة.[38]

الشنفرى يخشى أن يبادر باتجاه المصالحة والوفاق مع الآخر/ المجتمع، فلا يلقى استجابة وقبولاً، فينكص خائباً يلوم نفسه وتلومه نفسه على كسر ترفعها. لذلك، وتجنّباً لمثل هذا الموقف، يحجم الشنفرى عن تفعيل تلك الخطوة. وتنتهي اللوحة بصورة لا تشي إلا بالانهزام والانطواء والتراجع (أطوي على الخمص الحوايا)، تقوقع على الذات، وانكفاء باتجاه الوراء، وانطواء على الأنا الجافة.[39] وفي تكثيف لمشهد الجوع، يستحضر الشنفرى رفقاءه، علهم يحملون معه شيئاً من وطأة هذا الإحساس، يقول:[40]

وأغدو على القوتِ الزهيد كما غدا أَزِلُّ تَهادَاه التَّنائفُ أَطحلُ
غدا طاوياً يعارض الريحَ هافياً يخوت بأذناب الشعاب ويعسِلُ
فلما لواه القوتُ من حيثُ أُمَّهُ دعا، فأجابتهُ نظائرُ نُحَّلُ

رمز جديد يُضاف إلى ما سبقه الذئب. وأي ذئب! هو الذئب الشنفري الصعلوك. قوت زهيد، وذئب هزيل تتقاذفه الريح شاحباً مغبراً. سلطة الجوع تفرض جورها وتستنزف القدر الأكبر من قدرة

الشنفرى على الاحتمال والمواجهة. لم يعد بمقدوره الصمود منفرداً، عندما اطلق نداء الاستغاثة ليصل الى مسامع الرفاق فيلبّون النداء، هم نظائره واقرانه، حالهم كحاله، ذئاب متصعلكة جائعة، يقول :[41]

مهلهلة، شيب الوجوه كأنها قداح بكفي ياسر تتقلقلُ
أو الخَشرمُ المبعوثُ حَثْحَثَ دَبرَهُ مَحَابِيضُ أرداهُنَّ سَامٍ مُعَسَلُ
مهرتة، فوة، كأن شدوقها شقوق العصي كالحات وبُلُ

يحول الشنفرى صعاليكه إلى ذئاب، فالذئاب تبدو وكأنها نسخة طبق الأصل عن الصعاليك، لكن الألوان ترابية باهتة ضبابية انعدم منها الألق، واختنق فيها النور، مشهد تستوطنه الرمزية والكناية، الأبطال فيه شخوص متنكرة بزي الذئاب، أو هم صعاليك مسخوا ذئاباً لاجترائهم على قداسة الآخر ومعارضته، فكان الانسحاق، والقهر، والإبعاد: مصيرهم وعقوبتهم .[42]

فشلت الذئاب الصعاليك، في التواصل مع محيطها وبيئتها عندما بخل عليها، فلم يستجب لرغبتها في الاندماج، وصدّها بشكل صدامي عنيف. وكانت النتيجة: حالة من اليتم والانكفاء، والانزواء منيت بها الذئاب، فاستنكفت محسورة مهيضة. الذئاب-الصعاليك، الذين هم في بحث دائم عن الطعام والغذاء، من أجل الاستمرار في البقاء والحياة، غذاؤهم المفقود هو رغبة عميقة حميمة في العودة والارتماء في أحضان مجتمع رفضهم، وفصل لحمته معهم رغبة في وصل ما انقطع، لكن القطيعة أعمق من أن تُردم!! وتعود الصعاليك المستذئبة إلى أوكارها خالية الوفاض، إلا من حسرة تلوكها، ومرارة تجترعها، وحصادٍ من خواء وفراغ وعَدَم .[43]

الشنفرى في بحثه عن ذاته المفقودة التي سُرقت منه، حاول الانفصال عن الذات الجمعية المتمثلة. المتمثلة بمجتمع القبيلة أراد أن يشعر بثقل ذاته، وحجم وجوده، فهجر نطاق: نحن/ القبيلة، إلى نطاق (نحن) جديدة مغايرة، تكون فيه أناه الخاصة هي العليا .[44]

عالم الشنفرى البديل، والمعوّض عن عالمه القديم، هو (مجتمع هويات ذاتية واقعية محسوسة، بدلاً من مجتمع القبيلة الذي لاهوية لـه: مجتمع المواضعات والمصطلحات). لكن بناء ذلك المجتمع، حتى لو كان وهمياً، لم يشف نفس الشنفرى من سقمها، فداؤه ودواؤه متلازمان علّته تتلخص في الانفصال والاندماج. علة سببها الآخر ؛ عندما أخرج الشنفرى من نسيجه، أو عندما انسحب هو نفسه من عالم الآخ، وبلسمه يملكه ذلك الآخر ويضن به عليه، لأن رغبة العودة والاندماج المستترة في الذات الشاعرة، لا تلقى قبولاً أو ترحيباً من مجتمع: نحن الآخرة .[45]

ويختم شاعرنا حياته بصوت انفصالي عالي اللهجة يعلن فيه نقمته الصارخة على مجتمع البشر، ورفضه الأكيد لتقاليده وأعرافه، وعدم رغبته في احتضان البشر الآدميين له، حتى وهو جثّة فاقدة للحياة في قوله :[46]

لا تقبروني إن قبري محرم عليكم، ولكن أبشري أم عامر

في تلك اللحظات الصعبة، تذكّر كلّ مالقيه من ظلم الناس له، ولم يجد من ضرورة لدفن جسده في أرض رفضه أناسها، فلتنعم الوحوش بافتراس جثته، لأنها كانت أحن عليه، وأرحم من بني قومه.[47]

في النتيجة يمكن القول: إن ثورة الصعاليك التي اتخذت التمرد والعصيان، والخروج على المجتمع بقوانينه وأعرافه شعاراً لها، سارت في اتجاهين متعاكسين، اتجاه الإصلاح الاجتماعي، وتزعمه عروة بن الورد الثائر الذي اتسمت ثورته بالطابع الإنساني البناء، والاعتدال في المواقف، وكان الإنسان في هذه الثورة الأساس والغاية. فالثورة الوردية سعت نحو تحقيق الحرية، والعدالة، والمساواة والاتجاه الآخر، هو اتجاه العنف والقسوة، ومثله الصعلوك الناقم الشنفرى، تميزت ثورته بالتطرف والمغالاة في نهجها، وجعلت هدفها الانتقام من المجتمع، وتقويض أسسه، وذلك بسفك الدماء، دون تمييز بين البريء والمذنب، ورغم هذا كله، فإن المحرك الأساس لثورة الصعاليك، على[48].

اختلاف اتجاهاتهم، هو الظلم والقهر، والهدف منها هو، رفع الظلم ومحو البؤس، وتحقيق الحرية العادلة، على اختلاف الوسيلة والطريقة.

الخاتمة

في ختام البحث توصلنا الى مجموعة من النتائج وهي....

1. بلغ اليأس من نفس الشنفرى مبلغاً عميقاً، يأس من تصحيح مسار المجتمع، أو تغييره وتحويله إلى مجتمع حاضن لأبنائه جميعاً، دون استثناء لأحد. لم يتمكن من إيجاد صيغة من الوفاق أو التفاهم تقربه من مجتمعه، ليزداد عمق الانفصال والقطيعة، وكان الحل الوحيد في هجران المجتمع والخروج على نظمه وأعرافه، وفصم عرى التواصل بينهما، والعمل على إيجاد مجتمع آخر ينتمي اليه فهو من طائفة الصعاليك الخلعاء التي كان افرادها ضحايا الظروف القاسية واللا قبول الاجتماعي والنبذ فلم يكن أمامهم إلا الهروب من المجتمع والتمرد عليهم والانتقام منهم نتيجة لغياب العدالة الاجتماعية ووجود قانون الخلع الذي يحرم الفرد حقه من الحماية والحصانة عند طرده من قومه بحجة الحفاظ على وحدة القبيلة ليصبح بعد ذلك وحيدا وفاقدا للانتماء القبلي وبالرغم من وجود محاولات للتمرد من اجل تحقيق العدالة والمساواة وإلغاء الفروق والانتقام هذا الانتقام الممزوج بالغضب والدم.....إلا أن هذه المحاولات انتهت بالإخفاق لان الغلبة كانت لسلطة القوانين وللمجتمع الذي لا يقبل التعديل على هذه القوانين فبقي الألم وجرح النفس بعد إخفاقه في استعادة هويته وذاته المفقودة وشعوره بالظلم وعدم القدرة على رفع الظلم وتحقيق العدالة والمساواة وذلك بسبب قسوة المجتمع الجاهلي أعرافه.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت711هـ)، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1993م.
2. الاصفهاني، علي بن الحسين ت(356هـ)، الأغاني، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1994م.
3. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، المركز العربي، بيروت، لبنان، 1982م.
4. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت471هـ)، دلائل الاعجاز في علم المعاني، تصحيح: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1982م.
5. جمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط2، 1972م.
6. حرشاوي جمال، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك (الشنفري انموذجاً)، أطروحة دكتوراه، كلية الأداب والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، الجزائر، 2025-2016م.
7. حرشاوي جمال، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك (الشنفري أنموذجاً)، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة العربية والأدب العربي، 2016م.
8. راضية لرقم، تجليات الذات وتمثلات الآخر في ديوان عنترة بن شداد، مجلة المدونة، المجلد (10)، العدد (1)، 2023م.
9. رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.
10. الزركلي، خير الدين بن محمود بن علي (ت1396هـ)، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002م.
11. الزمخشري، محمود بن عمر (ت538هـ)، اعجب العجب في شرح لامية العرب، دار السؤال، دمشق، 1987م.

12. السدوسي، ابي فيد مؤرج بن عمرو (ت195هـ)، شعر الشنفري الأزدي، تحقيق: الأستاذ الدكتور علي ناصر غالب، ط1، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2010م.
13. سيد محمد غنيم، سيكولوجيا الشخصية (محدداتها، قياساتها، نظرياتها)، دار النهضة العربية، القاهرة.
14. الشنفرى، عمرو بن مالك (70ق.م)، الديوان، جمعه وحققه وشرحه: د. إميل بديع يعقوب، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996م.
15. الشنفرى، عمرو بن مالك (70ق.م)، في الطرائف الأدبية، صحّحه وخرّجه وذيّله: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت.
16. الشنفرى، عمرو بن مالك (70ق.م)، لاميَّة العَرب، عُني بها وشرحها شرحاً موجزاً: د. محمد مطر سالم بن عابد الكعبي، ط1، دار القلب، دمشق، 2018م.
17. طلال حرب، ديوان الشنفرى، ط1، دار صادر، بيروت، 1996م.
18. عبد الحليم حفنى، شرح ودراسة لامية العرب للشَّنفَرَى، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008.

هوامش البحث:

[10] الزركلي، خير الدين بن محمود بن علي (ت1396هـ)، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002م، ج5، ص85.
[20] الشنفرى، عمرو بن مالك (70ق.م)، لاميَّة العَرب، عُني بها وشرحها شرحاً موجزاً: د. محمد مطر سالم بن عابد الكعبي، ط1، دار القلب، دمشق، 2018م، ص161.
[30] المصدر نفسه، ص162.
[40] الشنفرى، عمرو بن مالك (70ق.م)، الديوان، جمعه وحققه وشرحه: د. إميل بديع يعقوب، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996م، ص10.
[50] الاصفهاني، علي بن الحسين ت(356هـ)، الأغاني، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1994م، ج21، ص118.
[60] طلال حرب، ديوان الشنفرى، ط1، دار صادر، بيروت، 1996م، ص25.
[70] الشنفرى، الديوان، المصدر السابق، ص11-12.
[80] الاصفهاني، الأغاني، المصدر السابق، ص119-120.
[90] المصدر نفسه، ص120.
[100] المصدر نفسه، ص120.
[110] الاصفهاني، الأغاني، المصدر السابق، ص120.
[120] عبد الحليم حفنى، شرح ودراسة لامية العرب للشَّنفَرَى، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008م، ص49.
[130] عبد الحليم حفنى، شرح ودراسة لامية العرب للشَّنفَرَى، المصدر السابق، ص49.
[140] طلال حرب، ديوان الشنفرى، المصدر السابق، ص28.
[150] السدوسي، ابي فيد مؤرج بن عمرو (ت195هـ)، شعر الشنفري الأزدي، تحقيق: الأستاذ الدكتور علي ناصر غالب، ط1، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2010م، ص30.
[160] الشنفرى، الديوان، المصدر السابق، ص15.
[170] طلال حرب، ديوان الشنفرى، المصدر السابق، ص29.
[180] الشنفرى، الديوان، المصدر السابق، ص19.

[190] حرشاوي جمال، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك (الشنفري أنموذجاً)، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة العربية والأدب العربي، 2016م، ص94.
[200] السدوسي، شعر الشنفري الأزدي، المصدر السابق، ص37.
[210] المصدر نفسه، ص37.
[220] المصدر نفسه، ص38.
[230] حرشاوي جمال، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك (الشنفري أنموذجاً)، المصدر السابق، ص95.
[240] ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت711هـ)، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1993م، ج15، ص457.
[250] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط2، 1972م، ج1، ص307.
[260] سيد محمد غنيم، سيكولوجيا الشخصية (محدداتها، قياساتها، نظرياتها)، دار النهضة العربية، القاهرة، ص532.
[270] راضية لرقم، تجليات الذات وتمثلات الآخر في ديوان عنترة بن شداد، مجلة المدونة، المجلد (10)، العدد (1)، 2023م، ص1265.
[280] المصدر نفسه، ص1266.
[290] المصدر نفسه، ص1266.
[300] المصدر نفسه، ص1266.
[310] الزمخشري، محمود بن عمر (ت538هـ)، اعجب العجب في شرح لامية العرب، دار السؤال، دمشق، 1987م، ص141.
[320] رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، ص111.
[330] المصدر نفسه، ص111.
[340] رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، المصدر السابق، ص112-113.
[350] الزمخشري، اعجب العجب في شرح لامية العرب، المصدر السابق، ص142.
[360] رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، المصدر السابق، ص113.
[370] الزمخشري، اعجب العجب في شرح لامية العرب، المصدر السابق، ص142-143.
[380] رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، المصدر السابق، ص114.
[390] المصدر نفسه، ص118.
[400] الزمخشري، اعجب العجب في شرح لامية العرب، المصدر السابق، ص144.
[410] الزمخشري، اعجب العجب في شرح لامية العرب، المصدر السابق، ص144.
[420] رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، المصدر السابق، ص119.
[430] المصدر نفسه، ص120.
[440] رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، المصدر السابق، ص122.
[450] المصدر نفسه، ص122.
[460] الشنفرى، عمرو بن مالك (70ق.م)، في الطرائف الأدبية، صحّحه وخرّجه وذيّله: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص36.
[470] رباح عبد الله علي، مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي، المصدر السابق، ص123.
[480] المصدر نفسه، ص124.

The lost self (Al _shanfara as a Model)

Assit. prof. Dr. Ragaa Lazam Ramadan
Mustansiriya University /college of Basic Education.
rajaalazm@gmail.com

Abstract

Shanfara held a high position in his tribe.He was its voice and the defender of its existence towards other tribes.Hence ,his existence was linked to his tribe as part of its social structure ,which bore the responsibility of elevating the status of that tribe before others and defending it , in the face of him ,if something happened to it .of the is one shanfara hard to (vagrant)poets who strove break out of the prevailing social system that was unjust to them ,as they believed,and to search for their existence , especially in his (Lamiyyah) ,which is a model that can be relied upon.

Key words: the lost – self - Al shanfara**.**